القفزة الاقتصادية البرازيلية (1) : المظاهر

المقدّمة

حقّق البرازيل منذ أربعة عقود قفزة اقتصادية كبيرة حوّلته إلى بلد صناعي جديد وجعلت منه قوّة إقليمية بارزة. فقد تمكّن هذا البلد النامي من إرساء قاعدة صناعية متكاملة تعدّ الأولى في أمريكا اللاتينية وعزّز مكانته الفلاحية في العالم ليصبح أشدّ منافس للولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، كما نجح في النفاذ إلى الأسواق الكبرى ليضمن لنفسه حضورا عالميا متزايدا. إلاّ أنّ هذا النجاح البرازيلي المؤكّد لا يخفي هشاشة هياكل الإنتاج وما أفرزته القفزة الاقتصادية من تفاوت في نموّ أغلب القطاعات وتنام للاختلالات في مختلف الميادين.

I - قوّة صناعيّة بارزة ضمن الجنوب

بدأت جهود التصنيع في البرازيل قبل الحرب العالمية الثّانية، فاستفادت الصّناعات الأولى من وفرة المنتجات الفلاحيّة وضخامة الموارد المنجمية. ومنذ خمسينات القرن الماضي، حظيت صناعات الجيل الثاني بعناية الشّركات عبر القطرية الأجنبيّة، فشهدت نموّا مطّردا قبل أن يقتحم البرازيل صناعات التكنولوجيا العالية بالاعتماد على الاستثمارات الأجنبية المباشرة[1].

1 – احتفاظ الصّناعات القديمة بمكانة مرموقة

لم تنطلق حركة التصنيع بصفة جدّية إلاّ بعد أزمة الثلاثينات الاقتصادية بمبادرة الدولة التي وظّفت تمويلات ضخمة لتطوير الصّناعات الثقيلة لما لها من مفعول حثّ وقدرة على بناء اقتصاد مستقلّ. فأنشأت الدولة صناعات التّعدين وأخضعت الجزء الأكبر من فروعها لمؤسسات عمومية مثل شركتي سيدربراس Siderbras و س.آس.ن. Campanhia Siderurgica Nacional اللتين سيطرتا على قطاع الفولاذ. وقد تركّزت هذه الصّناعات أساسا في منطقة ميناس غرايس الغنيّة بالمعادن حول مدينة بيلو أورزنت Belo Horizonte [2]. ويحتفظ البرازيل بمراتب عالمية هامّة في إنتاج الفولاذ والألومنيوم رغم الفتور النّسبي الذي أصاب هذه الصّناعات. فبعد قرابة نصف قرن من الحمائية أصبحت الصّناعات القديمة في أمسّ الحاجة إلى إعادة الهيكلة من أجل تحسين قدرتها التنافسيّة داخل البلاد وخارجها.

2 – تدعّم صناعات الجيل الثّاني

شهدت الصّناعات الكيميائيّة والميكانيكيّة وصناعات التجهيز الكهربائي نموّا مطّردا. وقد برزت خصوصا صناعة السيّارات بداية من 1955 واستقطبت أكبر الشّركات العالمية مثل جنرال موتورز وفيات ثمّ تدعّمت بتأسيس شركة أوتولاتينا Autolatina سنة 1986 إثر اندماج فرعي شركتي فولكس فاغن وفورد. ومنذ 1994 توطّنت بالبرازيل تسع شركات عبر قطرية أمريكية ويابانية وأوروبية من أبرزها رينو الفرنسية، فتحوّل البرازيل بسرعة إلى رابع منتج في العالم للسيّارات. لكنّ السّوق البرازيلية ما لبثت أن تشبّعت فاحتدمت المنافسة ولم تعُد صناعة السيّارات تستغلّ أكثر من 60% من طاقتها الإنتاجية [3].

3 – حيويّة صناعات التكنولوجيا العالية

توفّق البرازيل بالاعتماد على الاستثمارات الأجنبية المباشرة إلى اقتحام صناعات التكنولوجيا العالية مثل صناعة المعلوماتية والصناعة النّووية وصناعة الطائرات والأسلحة.

لقد أصبح البرازيل يمتلك محطّتين نوويتين فضلا عن مركز لتخصيب اليورانيوم قرب ريو دي جانيرو. ومن ناحية أخرى، تعدّ شركة إمبرائر Embraer البرازيلية[4] ثالث مصنّع للطائرات المدنيّة في العالم، نجحت في اختراق أسواق البلدان المتقدّمة إذ أصبحت من أهمّ مزوّدي فرنسا بطائرات التدريب والولايات المتحدة بطائرات النقل الداخلي. وتُستَعْملُ طائرات البرازيل من نوع EMB 120 في أكثر من أربعين بلدا. كما تلقى طائرات إمبرائر الحربيّة من نوع Tucano رواجا في أسواق الشمال والجنوب مثل إيطاليا وانقلترا ومصر وفنيزويلا ... وأصبح البرازيل من أهم البلدان المنتجة للأسلحة الثقيلة والخفيفة بفضل إسهامات الشركات عبر القطرية الأوروبية والأمريكية التي أنشأت بهذا القطر مصانع متخصّصة تمكّنها من تجاوز القيود المفروضة من قبل حكوماتها على بيع الأسلحة في المناطق المتوترة من العالم [4].

ولئن كانت صناعات التكنولوجيا العالية أ قدر من الصناعات القديمة على تحمّ ل المنافسة العالمية، فإنّها تضطر إلى توريد التجهيزات الجديدة وتأجير رخص وبراءات الإنتاج بصفة مستمرة حتّى تساير التحولات التكنولوجية السّريعة التي تشهدها صناعات الأسلحة والطائرات والمعلوماتية.

وقد اقترن هذا التصنيع الحثيث بتدعّ م مكانة القطاع الصّ ناعي في الاقتصاد البرازيلي[5]، فأضحت المنتجات الصّناعية تمثّل أ كثر من نصف مجموع الصّ ادرات البرازيلية وتحوّ ل البرازيل إ لى طرف فاعل في الصّناعة العالمية.

II - عملاق فلاحي

لم يعوّ ل البرازيل لتحقيق التنمية على التصنيع فحسب بل وجّ ه عنايته للقطاع الفلاحي وركّز جهوده على الزّ راعات التصديرية التي جعلت منه قوّة فلاحية كبرى مؤهّلة لاحتلال الصّدارة في العالم[6] رغم تعقد مشاكله العقارية وعجزه عن تأمين اكتفائه الغذائي.

1 – أوّلية الزّراعات التصديرية

أ– حظوة دائمة

نمت الزّراعات التصديريّ ة منذ عهد الاستعمار البرتغالي وتدعّمت في ظلّ النموذج التصديري الذي تبنّته البلاد منذ 1964. فاستأثرت بالقروض واستفادت من مختلف الامتيازات وارتبطت بمنظومة متطوّرة للأبحاث الزراعية مكّنت البرازيل من الحصول على أفضل مردود في العالم بالنّسبة إلى القطن والسكّر والصّوجا. وتنتظم الزّ راعات التصديرية ضمن مستغلات كبرى غالبا ما تفوق مساحتها أ لف هكتار، من نوع اللاتيفنديا[7] أو تابعة لشركات عبرقطرية قويّ ة. وقد امتدّ ت هذه الزّ راعات على قرابة نصف المساحة الزراعيّ ة حيث غزت الصّوجا مناطق شاسعة من الوسط الغربي وما انفكت تزحف نحو الشمال زحفا لتغطّي إجمالا 12 مليون هكتارا مقابل ربع مليون فقط في بداية الستينات [8]. كما توسّعت المساحات السقويّة المخصّصة للقوارص في جنوب البلاد، وانتعشت زراعة قصب السكّر لإنتاج الإ تانول Ethanol بعد الصّدمتين النفطيتين لسنتي 1973 و1979. ورغم هذا التوسّع فإنّ البرازيل لازال يحتفظ بمخزون عظيم من الأ راضي الزراعية ولم يصل بعد إلى طاقته الإنتاجية القصوى.

ب– إنتاج هائل وفائض ضخم

تتميّ ز الفلاحة البرازيليّ ة بقدرة فائقة على الاستجابة بسرعة للحاجات المتجدّ دة للسّوق العالميّ ة، وهي تستحوذ على المراتب الأولى في إ نتاج وتصدير القوارص والقهوة والسكّر والصّوجا والغلال والتبغ ولحوم البقر والدّواجن بنسب تفوق أحيانا ربع الإنتاج العالمي [9]. وتندمج المستغلات الفلاحيّة التي توفر هذه المنتجات في مركب فلاحي– غذائي تصديريّ قويّ تحرّكه الشّركات عبر القطرية مثل دَانُون ونسْتلي وبَارْمَالات، فيوفّر أكثر من ثلث إجمالي الناتج الداخلي الخام للبلاد ويسهم بأكثر من ثُلث إجمالي الصّادرات.

ولئن مكّنت الزّراعات التصديرية التي ارتبط بها اقتصاد البرازيل من تحقيق فوائض تجارية كبيرة وبصفة منتظمة، فإنّها أسهمت في دفع حركة النزوح بقوّ ة نحو المدن نظرا لضعف قدرتها التشغيلية واعتمادها على اليد العاملة الموسميّة خاصّة أوقات الغرس والجني.

2) هامشية الزّراعات المعاشية

أ– وضع عسير

تنتمي الزّراعات المعاشية في البرازيل أساسا إلى الفلاحة العائليّة. وتختصّ في زراعات الأرز والقمح وخاصة الزراعات التي ترتبط بالنظام الغذائي البرازيلي التقليدي مثل اللوبيا الجافّة والمانيهوت، أساس تغذية الفقراء [9]. توفّر هذه الزراعات الشغل لثلاثة أرباع اليد العاملة الفلاحية وتنتظم ضمن مستغلات صغيرة من نوع المينيفنديا أ و الميكروفنديا وتنتشر بصفة خاصّ ة في شمال شرق البلاد حيث تعجز عن الصّمود أ مام اكتساح الزّراعات التصديرية لأخصب الأراضي السّ احلية. ولا تستفيد هذه الزراعات من جهود تعصير القطاع، فما زال أصحابها يعانون ضعف الدخل ويضطرون إلى العمل لدى اللاتيفنديّين قبل الالتحاق بإحدى جبهات الرّيادة أو النزوح نحو المدن بعد التفويت في أراضيهم.

ب– إنتاج غير كاف

لم تستطع الزّراعات المعاشية مواكبة نسق نموّ السكّان والاستهلاك، بل إنّها تشهد ركودا في الإنتاج وتراجعا في المردود يجعلانها عاجزة عن استيعاب كلّ سكّان الأرياف وإ بعاد شبح الجوع الذي يتهدّد ملايين البرازيليين [10].

ورغم تفاقم أ زمة الفلاحة المعاشية، يسجّ ل ميزان التبادل الفلاحي الغذائي البرازيلي فوائض ضخمة [11] مكّ نت البرازيل من تغطية عجز ميزانه التجاري. كما تحوّ ل البرازيل بفضل الزّراعات التّصديريّة إلى ثاني مصدّر في العالم للمنتجات الفلاحيّ ة والغذائية وبات أشدّ منافس للولايات المتحدة الأ مريكية والاتحاد الأ وروبي في الأسواق العالميّة.

III - طرف تجاري نشيط في الأسواق العالمية وبلد مشعّ في الجنوب

استفادالبرازيل من نهضته الصناعية وتنامي قوّته الفلاحيّة ليدعّم حضوره في الأسواق العالمية وليعزّز دوره كطرف مؤثّر في السّاحة الدولية.

1– حضور متنام في الأسواق العالمية

أ– اكتساح الأسواق العالمية

شهدت التجارة الخارجية البرازيلية منذ 1964 نموّا متواصلا[12] تسارع نسقه مع بداية التسعينات في ظلّ سياسة الانفتاح الاقتصادي والتحرير التجاري. فقد أ سهم خفض الرسوم الجمركية في تزايد قيمة الواردات من التجهيزات والغذاء ومواد الاستهلاك واستفادت الصّادرات من تطوّرالخدمات المساندة للمؤسّسات مثل النقل الدولي والبنوك والتأ مين خصوصا بعد انفتاحها منذ 1990 على رأ س المال الأ جنبي. وتستمدّ الصّ ادرات البرازيلية حيويتها، خلافا للأقطار الصّناعية الجديدة الآسيوية، من الجمع بين المنتجات الغذائية والصّناعية والمنجمية[13 و14] وقد تضاعفت قيمتها أكثر من 12 مرّة منذ 1970 حتّى بلغت مستوى صادرات بُلدَانٍ متقدّمة واكتسبت في نفس الوقت بعض سماتها كتقلص حصّة المنتجات الفلاحية وغلبة حصّة المنتجات الصّناعية مع تدرّجها نحو التنوع لتشمل الآلات وتجهيزات النقل ومواد التكنولوجيا العالية. فساعد ذلك البرازيل على التخلّص من العجز الذي عانى منه طويلا ميزانه التجاري إذ أصبح يسجّ ل فوائض كبيرة بصفة منتظمة[12] . ولئن كانت أغلب هذه الصّادرات تتّجه بالأ ساس نحو بلدان الشمال فإنّ البرازيل ما فتئ يعمل على تدعيم حضوره في أسواق الجنوب وخصوصا في أمريكا اللاتينية وبلدان السّوق المشتركة لجنوب أمريكا (المركوسور) بالتحديد[15].

ب– تبعيّة تجاريّة مفرطة للخارج

رغم تزايد فوائض الميزان التجاري، حافظت التّجارة البرازيليّ ة على سمات تجارة بلد نام تعكس بنيتها ازدواجية هياكل الإ نتاج وتؤكّد شدّ ة الارتباط بالخارج. لقد تبنّ ى البرازيل نموذجا تنمويا جعل من التصدير ضرورة قصوى، فكرّس ارتباطه الوثيق بأسواق خارجية احتدّت المنافسة فيها خاصة بعد تخلي الدّولة عن دعمها للمنتجات المصدّرة. كما تقيّد البرازيل بعدد محدود من بلدان الشمال وهي الولايات المتّحدة الأمريكيّة والاتحاد الأ وروبي واليابان التي تستوعب ثلاثتها حوالي نصف صادراته وتتحكّ م عن طريق بورصاتها في أسعار بعض المنتجات الرئيسيّة التي يروّ جها كالقهوة والكاكاو والقوارص سيما وأنّ البرازيل لا يستطيع التعويل كثيرا على السّوق الدّاخلية بسبب تركز الدّخل لدى أقلية من السكان. وممّا يزيد مخاطر الارتباط بالخارج حِدَّة تفاقم التبعية الغذائية الناجمة عن تهميش الزراعات المعاشيّ ة. وما تمادي البرازيل في التعويل على توريد المواد الغذائية الأساسية والآ لات وتجهيزات الاتصال والخدمات الرّفيعة إلا مظهر من مظاهر انتمائه إلى الجنوب.

2 – وزن عالميّ متزايد

وظّف البرازيل نجاحاته الاقتصادية لتدعيم حضوره كقوّة إقليمية في أمريكا اللاتينية وتعزيز موقعه كرائد لبلدان الجنوب.

أ– قوّة إقليمية

يبرز الإشعاع الإقليميّ للبرازيل من خلال الدور المحوري الذي أدّ اه في تأ سيس المركوسور منذ سنة 1991 والجهود التي قام بها لتوثيق العلاقات مع بلدان المجموعة الأ ندية مثل كولومبيا وفنيزويلا والبيرو من أجل إدماجها في مجال إقليمي يدعم انخراطه في سياق العولمة ويعزّز مواقفه في المحافل الدّولية[16].

ب- إشعاع عالمي

يتجلّى إشعاع البرازيل عالميا من خلال نموّ استثماراته المباشرة في الخارج التي تضاعفت قيمتها حوالي 5 مرّات بين 2004 و 2007، فتوطّنت بعض شركاته عبر القطرية في العالمين النامي والمتقدّم مثل فالي دُوريو دُوتشي في القطاع المنجمي أو إمبرائر التي أسّست فروعا لها في أوروبا ومصر والصّين أو بيتروبراز التي تنشط في إفريقيا والشرق الأوسط فضلا عن أمريكا اللاتينيّة وأصبحت رابع شركة نفطية في العالم من حيث الرّسملة سنة 2010 قبل طوطال وبريتش بيتروليوم.

كما يبرز الإشعاع العالمي للبرازيل من خلال أنشطة الترفيه الجماهيري مثل السياحة والكرنفال وكرة القدم والمسلسلات التلفزيونية، ويتأكّد من خلال حرصه على تزعّم العالم اللّوزوفوني lusophone الذي يجمع البلدان الناطقة بالبرتغالية، وتبنّيه قضايا الجنوب في مواجهة أقطاب الشمال في اجتماعات المنظّمات الدولية. من ذلك تزعّمه مجموعة العشرين G20 في مفاوضات المنظّمة العالميّة للتجارة أثناء ندوة كنكون بالمكسيك. إلا أن البرازيل لا يتردّد في التراجع أحيانا عن مواقفه مراعاة لمصالحه الحيويّة مع دول الشمال [16].

الخاتمــة

نجح البرازيل في تحقيق قفزة اقتصادية كبيرة حوّلته رغم المصاعب التي أفرزتها إلى بلد صناعي جديد وقوّة إقليمية بارزة يتجاوز إشعاعها حدود أمريكا اللاتينية. وقد استندت هذه القفزة إلى دعائم متنوّعة لا تخلو بدورها من نقائص.